

# الإسلام والتجديد فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين

د/ مهدي فضل الله (\*)

تَمَّهِدٌ

الإسلام عقيدة وشريعة ونظام عام. عقيدة تقوم على التوحيد الخالص وتتجسد بالإيمان بالله الواحد ونبيه ورسله وملائكته واليوم الآخر. موخاة من الله سبحانه وتعالى، خالق الأكوان والإنسان، إلى الناس كافة، عن طريق نبيه محمد خاتم الرسل والأنبياء، تملأ كيان كل معتق لها عن حرية واقتناع وتحرره من عبادة المال والأصنام والأشخاص. وقبول الظلم والظغيان والاستغلال والاستعباد.

وشريعة تمثل بوجوب تأدية فرائض الله من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد، وتتأتى من حركة الإيمان بالعقيدة في القلوب والعقول والتي تدفع كل مؤمن بها للعمل وفق مبادئ الإسلام وتعاليمه عن طواعية واختيار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١)

ونظام يعتمد في وجوده على الإيمان بالعقيدة، والسلوك وفق مقتضى الشريعة، ولكنه فى معناه أوسع من العقيدة، لأنه ليس صلاة وصوماً وزكاة وحجاً فقط، وإنما هو

(\*) مفكر لبناني.

(١) سورة البقرة آية ١٧٧

المنهاج العام الذى ينظم حياة الإنسان فى جميع مناحي الحياة. سواء منها السياسية أو الاقتصادية أو القضائية أو الاجتماعية أو الأخلاقية على أكمل وجه. ويقوم على أساس الشورى التى جاء ذكرها فى سورة تسمى باسمها، ونزلت فى معرض ذكر أوصاف المسلمين بأنهم الذين يجتنبون الكبائر ويؤدون الصلاة والزكاة، ويعتمدون الشورى ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١﴾

كما جاء ذكرها بصيغة الأمر، وقد نزلت يوم أحد عندما أشار بعض الصحابة على النبي ﷺ بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين، خلافاً لرأيه، لتفوق قريش العددي، ونزوله عند رأيهم، فكانت النتيجة هزيمة المسلمين فى المعركة، وجرح النبي نفسه، بسبب عدم تنفيذ أوامره كاملة فى المعركة، ومن قبل فريق الرماة ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢)

وإعلاء النظام الإسلامى وإقامة المجتمع الإسلامى، هو غاية الإسلام فى نهاية المطاف، لتحقيق خلافة الإنسان فى الأرض وصوغ حياته وفق مبادئه التى تلائم جميع الأوضاع، بصرف النظر عن اختلاف المكان والزمان والإنسان. والذى يؤمن بالعقيدة، ويعمل بمقتضى الشريعة، لا يمكنه إلا العمل من أجل إقامة النظام والمجتمع الإسلامى فى الأرض، من أجل مرضاة الله وخير الإنسان كافة، مهما كلفه ذلك من جهد وتضحيات حتى ولو كان فى ذلك حثفه.

ولذا عندما آمن الأعراب من أهل الجاهلية بعقيدة الله: الإسلام وشريعته فغيروا ما بنفوسهم وقلوبهم وعقولهم، وانقلبوا على ما هم عليه من أوضاع لإعلاء كلمة الله فى دنيا العرب، وإقامة المجتمع الإسلامى الأول ودولة النبوة العادلة الرشيدة المثالية، فتم لهم ذلك فى وقت قصير لا يتعدى العقدين من السنين. وطهروا جزيرة

(١) سورة الشورى آية ٣٧ - ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩

العرب من الجاهلية التي كانت تحكمها ديانة الشرك الوثني والأصنام، وتسودها كل المورقات .

وهكذا، فالإسلام والتجديد القلبي والنفسي والعقلي والعملية، صنوان متلازمان وأتى وجد الإسلام الفعلي والمؤمنون به فعلياً قلباً ولساناً، قولاً وعملاً، يقوم التجديد الحقيقي في القلوب والنفوس والعقول. ويبدأ العمل من أجل التجديد في الحياة الاجتماعية باستمرار، وفاقاً لشرع الله عن طريق أعمال العقل في شريعته والاجتهاد. لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض على أحسن صورة كما يريد الله ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾<sup>(١)</sup> ويبقى للإنسان أينما كان. ومهما بلغ من الرقي العلمي والتقدم الحضارى. أن ينظر في مبادئ الشريعة الغراء وكلياتها العامة. التي تحمل في طياتها قابلية الاستجابة لمتطلبات واحتياجات كل عنصر. وتقبل تغير الأحكام بتغير المكان والزمان والإنسان، ويتدبر الحلول المناسبة لكل مشاكله، والأجوبة المناسبة على كل أسئلته، ومن الطبيعي أن لا يكون كل إنسان قادراً على تدبر معاني دين الله الكامنة في نصوصه وفهمها فهماً عقلياً جديداً بحسب المكان والزمان. إلا من شغل نفسه بذلك، وتفرغ لمعرفة ذلك، كما يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

كما يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾<sup>(٣)</sup>

وفي هذا الصدد، يروى عن النبي محمد ﷺ قوله: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها) ومعناه: أن الله تعالى يقبض للمسلمين كل قرن من الزمن، مجتهداً ربانياً مميزاً، يقدم لهم فهماً عقلياً جديداً لحقيقة الدين،

(١) سورة البقرة

(٢) سورة التوبة آية ١٢٢

(٣) سورة آل عمران آية ٧

يتماشى ومبادئه وكيانيته العامة، ويتناسب مع حاجات عصرهم وارتقائهم فى مضمار العلوم والحضارة .

### دولة النبوة والتجديد (١-١١١هـ / ٥٧٠-٦٣٢م)

إن أول تجديد للحياة العربية التى كانت عشية قيام الإسلام، كان فى عهد الرسول محمد ﷺ ونشأة المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة ثم فى مكة والجوار. فقد أبدل النبى محمد رابطة الدم والعصبية القبلية برابطة العقيدة التى توجد بين جميع المؤمنين بها بصرف النظر عن أصلهم وجنسهم ولونهم ودينهم وقريهم بعضهم من بعض، وجعلهم أمة واحدة كما نصت على ذلك الصحيفة -«صحيفة المدينة»- التى كانت بمثابة الدستور الإسلامى الأول الذى نظم العلاقة بين المسلمين. بعضهم مع بعض، وبينهم واليهود الذين جعلهم مواطنين وأمة فى المجتمع الإسلامى الوليد وجزءاً منه ماداموا ملتزمين بالعقد معهم، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وأزال ديانة الشرك الوثنى وعبادة الأصنام، ومنع الطواف كما كان عربياً، رجالاً ونساء، حول الكعبة، وحرّم زواج الرجل من امرأة أبيه، والجمع بين الأختين، والجمع بين أربع زوجات فى وقت واحد، ووأد المولودات خشية الإملاق والسبي، وحرمان المرأة والأولاد الصغار من الميراث، وأوجد السبل لتحرير الأرقاء؛ فإذا حنث المسلم يمينه وجب عليه عتق رقبة. وإذا أفطر عمداً فى رمضان وجب عليه عتق رقه، وإذا قتل مؤمناً خطأ وجب عليه عتق رقه. وإذا حرم امرأته على نفسه وجب عليه قبل معاودتها عتق رقبة، وإذا لطم رقيقه وجب عليه عتقه. وإذا أراد الرقيق افتداء حريته بالمال على أن يتركه سيده يعمل من أجل كسب المال لذلك، وجب على سيده القبول، وجعل من الصدقات مصرفاً لشراء الرقيق وإعتاقهم، وألزم بين المال بإعانة الفقراء والمحتاجين والإنفاق على العاجزين، ومساعدة المدينين العاجزين عن إيفاء ديونهم، وحرّم الربا والسرقه والزنى والإفساد فى الأرض ... الخ. وقرر المساواة التامة بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات. حتى إنه لم يتردد فى تزويج ابنة عمته، زينب بنت عبد الله بن جحش، من مولاة السابق، زيد بن الحارثة، فى وقت

كان العرب فيه لا يسمحون بزواج الحرائر من الموالى على الإطلاق، وحث على العلم، قائلاً: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، من سار في طلب العلم كان مجاهداً في سبيل الله، ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شهيداً) فطلب العلم عند الله أفضل من الصلاة والصوم والحج، عالم يتتبع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد، الحكمة ضالة المؤمن عليه أن يطلبها ولو من كافر .

ومن أحكام الرسول ﷺ في دولته، النهي عن إقامة حد السرقة على السارق في أرض العدو قائلاً: (لا تقطع الأيدي في الغزو) ولعل ذلك لما قد يترتب عن ذلك من ضرر للمسلمين المحاربين بانحياز المقطوع الى العدو غضباً.

ونزعه صفة الإيمان الحقيقي عن المسلم الذي يبنت شعبان وجاره جائع وهو يعلم ذلك (ما آمن بي من بات شعبان وجاره جائع وهو يعلم) وعدم تكليف الفقير الذي واقع امرأته في شهر رمضان، والذي لا يستطيع الصيام، ويفتقد إلى الطعام، ما لا يطبق، أى من الكفارة، فقد جاء في كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد<sup>(١)</sup>، نقلاً عن أبي هريرة (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هلكت يا رسول الله، قال: وما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتى في رمضان، قال: هل تجد ماتعتق به رقبة؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال: فهل تجد ما تطعم به ستين مسكيناً؟ قال: لا، ثم جلس، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بفرق فيه تمر، فقال: تصدق بهذا، فقال: أعلى أفقر مني؟ فما بين لابنيها بيت أحوج إليه منا، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه ثم قال: اذهب فاطعمه أهلك) ولعل حكم الرسول ﷺ هذا عائد إلى أن الله العادل لا يكلف نفساً إلا وسعها، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا... رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا...﴾ (٢)

(١) دار المعرفة، ١٩٨٨، مج ١، ص ٣٠١ - ٣٠٢) لأبي الوليد بن رشد

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

ونهيه الآباء عن تزويج بناتهم من غير رضاهم قائلاً: (لاتنكح البكر حتى تستأذن ولا الشيب حتى تستأمر) ولذا ترك للمرأة التي جاءتة تشكو تزويج أبيها لها من دون رضاها، الحرية بالإبقاء على زواجها أو عدم الإبقاء .

وحجبه الولاية عن كل طالب لها، ساع إليها قائلاً: (لن نستعمل على عملنا من أراده) ومحاسبته وعزله رسله عند انحرافهم في مهماتهم. فقد جاء في صحيح مسلم والبخارى عند أبي حميد الساعدي، أن رسول الله ﷺ بعث ابن اللثبية الأزدي لجباية صدقات بني سليم، فلما جاء بها قال هذا مالكم وهذا هدية أى هدية له من بنى سليم - فقال له الرسول ﷺ (فهلا جلست فى بيت أبيك حتى تأتيك هديتك إذا كنت صادقاً)

والذى يمكن قوله هو أن دولة النبوة قامت على أسس إنسانية، منها: الحرية، والعدالة، والمساواة، والشورى، لم تكن تعرفها الجزيرة العربية، ولا دول الجوار، وعلى رأسها دولة الفرس الأكاسرة ودولة الروم القياصرة، فقد كان لكل إنسان حرية اعتناق الدين الجديد الإسلام: أو البقاء على دينه وممارسة شعائره وعاداته من مأكّل ومشرب وزواج، ولو كان مخالفاً للإسلام، من دون أى إكراه مادي أو معنوي، تمشياً مع قول الله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾<sup>(٣)</sup> وغيرها من الآيات الكثيرة الواردة فى القرآن الكريم، ولذا، فإن الرسول لم يمتنع رؤساء نجران من النصرارى الذين جاؤوه وهو فى المسجد، من تأدية صلاتهم فى المسجد عندما حان موعد صلاتهم، ويروى ابن جرير الطبري فى تاريخه، نقلاً عن ابن عباس، أن رجلاً من بنى سالم بن عوف يسمى : الحصين، أسلم، ولم يسلم ولداه، اللذان آثر البقاء على ديانتهم النصرانية، سأل الرسول فيما إذا كان عليه أن يكره ولديه على اعتناق الإسلام فأجابه الرسول

(١) سورة الأعراف آية ٤٢

(٢) سورة المؤمنون آية ٦٢

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٦

﴿لا إكراه في الدين﴾ ولم تتمثل الحرية الفردية في دولة النبوة بالحرية الدينية فقط، وإنما تمثلت أيضاً بالحرية السياسية، التي أعطت الحق لكل مسلم، في إبداء رأيه، ولو كان معارضاً لرأى النبي نفسه، كما تمثلت خير تمثيل بالحرية الشخصية، وبخاصة في حرية المرأة بقبول أو عدم قبول الزواج ممن يوافق عليه ولي أمرها: وفي هذا الصدد، يروى أن امرأة جاءت النبي تشكو تزويج أبيها لها من ابن أخيه من دون رضاها، فجعل النبي الأمر لها في بقاء زواجها أو عدمه فقالت: (لقد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء شيء في أمر زواجهن) وكان العدل من أهم الأسس التي أقام النبي دولته عليها، استناداً إلى قول الله تعالى ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾<sup>(١)</sup> وقد جاء في الحديث القدسي: (يا عبادي! إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) وعند النبي محمد ﷺ وهو رئيس دولة المسلمين، أنه عندما جاءه أسامة بن زيد يشفع لفاطمة بنت الأسود، لعدم إقامة حد السرقة عليها، جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب فيهم قائلاً: (أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)

وكانت المساواة التامة بين جميع المسلمين، بصرف النظر عن جنسهم ولونهم ومركزهم ونسبهم، مما دعا إليه الإسلام، وقامت عليه دولة النبوة، إسناداً إلى قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وعن الرسول ﷺ قوله (الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) و (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ولذا قبل سادة قريش من المسلمين عن طيب خاطر وقبل قيام دولة النبوة في المدينة مؤاخاة الرسول بينهم وبين مواليهم في مكة، وقبلها المهاجرون والأنصار في المدينة، حيث قاسم الأنصار إخوانهم المهاجرين بيوتهم وطعامهم، وآثروهم علي

(١) سورة الشورى آية ١٥

(٢) سورة الحجرات آية ١٣

أنفسهم كما جاء في الآية ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وكانت الشورى من المبادئ الأساسية التي دعا الإسلام إليها، وقد جاء الأمر بها في الآية التي تصف العلاقة بين المؤمنين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>؛ كما جاء كذلك في الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾<sup>(٣)</sup>.

ولذلك كان النبي يعمد إلى مشاوره أصحابه من المهاجرين والأنصار في كل الأمور الهامة، كالفزوات والصلح وكان يأخذ رأيهم ولو كان رأيه خلاف ذلك، كما فعل في غزوة أحد، والصلح مع غطفان في غزوة الخندق.

وهذه الأسس وغيرها هي التي جعلت من المجتمع الإسلامي الوليد مجتمعاً جديداً فريداً في عصره، مجتمعاً متماسكاً مثالياً في التراحم والتعاضد والتكافل والتعاطف والأثرة والمحبة والزهد .. وجعلت الصلة ما بين أفراد المؤمنين صلة الأخوة، بعضهم أولياء بعض، بدون تمييز في الجنس أو اللون أو النسب، كما يقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>؛ والآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾<sup>(٥)</sup>. وقد بلغت القدرة الحربية الإسلامية في عهد النبوة من القوة بحيث إن النبي قبيل وفاته، كان قد جهز جيشاً كبيراً بقيادة أسامة بن زيد، ضم كيار الصحابة من المهاجرين والأنصار، كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وقتادة بن النعمان وغيرهم، لغزو أطراف بلاد الشام الجنوبية التي كانت تحت سيطرة الروم، وهكذا، كانت دولة النبوة أول تغيير جذري أحدثته

(١) سورة الحشر آية ٩

(٢) سورة الشورى آية ٣٨

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٤) سورة الحجرات آية ١٠

(٥) سورة الأنفال آية ٧٢

الإسلام في قلوب و نفوس و عقول و حياة العرب في الجزيرة العربية كلها، و حولهم من قبائل متنازعة متحاربة إلى أمة واحدة متماسكة و مجتمع واحد، و غير حياتهم من حال إلى حال في جميع شؤون أحوالهم السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الحربية، حتى أصبحوا قادرين في فترة و جيزة جداً من عمرهم في الإسلام، على تهديد أكبر قوتين و دولتين في ذلك الحين، دولة القياصرة و دولة الأكاسرة؛ و كانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يؤمنون بالله.

و بما أن نظام الحكم في الإسلام لا يعنى صورة معينة من الحكم، وإنما هو يتسع لعشرات الصور من ألوان الحكم الذى يتفق و الحاجات المستجدة و المتطورة للإنسان في كل مكان و زمان، فإن صورة الدولة في عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق. لم تكن هى الصورة نفسها التى عرفت زمن الرسول محمد ﷺ و صورة الدولة في عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، لم تكن هى صورة الدولة الإسلامية التى عرفت زمن الخليفة الأول و هلمجراً ... فقد تغيرت صورة الدولة الإسلامية على مر الزمن. لتساير أوضاع و حاجات المجتمع الإسلامى المتجددة، مما يدل على مرونة نظام الحكم في الإسلام، و لذا، يخطئ من يظن بأن الحكم الإسلامى معناه، الرجوع إلى حياة المجتمع الإسلامى الأول زمن الرسول ﷺ و مزاوله تلك الحياة البسيطة التى اقتضاها الواقع الاقتصادى آنذاك، و ترك كل محاسن الحضارة الحالية من عمارة و صناعة و تجارة و علم و فن ... الخ فالاستمتاع بالحياة في الحدود التى لا تصل إلى حد الإسراف يحض الإسلام عليه؛ و الله تعالى يقول في محكم كتابه الحكيم ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ (١)

(١) سورة الأعراف آية ٣١ - ٣٢

## دولة الخليفة الأول أبو بكر الصديق والتجديد (١١-١٣هـ/ ٦٣٢-٦٤٤)

بعد وفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي، تولى أبو بكر الصديق رئاسته الدولة الإسلامية بعد التشاور بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ومبايعة المسلمين له. وقد خطب في الناس إثر توليه الخلافة قائلاً: (أما بعد، أيها الناس! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدرى لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .. قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله) وبذلك أبان الخليفة الأول صورة جديدة مقبولة من صور الحكم في الإسلام وعلاقة الحاكم بالمحكومين بعد وفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي فالرسول معصوم من الآفات بإرادة الله، وهو خليفة الرسول، غير معصوم، وهو سيطع الله في أوامره ونواهيه وأحكامه؛ وكذلك سيطع الرسول في أوامره ونواهيه وأحكامه؛ وسيحل العدل والمساواة بين جميع الناس. ولكنه يمكن أن يخطئ أو يصيب، وعلى الأمة محاسبته في حال الخطأ، لأنه لا ميزة له على غيره من الأمة.

وقد سار أبو بكر الصديق في تسيير شؤون الحكم وترتيب شؤون الدولة الإسلامية على غرار دولة الرسول ﷺ وتوسعت في عهده الدولة الإسلامية من خلال الفتوحات الباهرة في الشام وفلسطين والعراق على حساب الدولة البيزنطية الرومية والدولة الفارسية، ولكن خلافته شهدت أحداثاً جساماً لم تكن تخطر على بال المسلمين، وواجه وقائع لم تطرأ على عهد الرسول ﷺ، فكان لابد من إعمال العقل والاجتهاد لمعرفة أحكام الشريعة في الحوادث والوقائع المستجدة.

ولعل أول حدث من الأحداث الجسام جابه أبابكر وهدد المسلمين بالانقسام والإسلام بالدثار، هو ارتداد بعض العرب، كبنى طي وغطفان وأسد وحنيفة وبكر عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، وامتناع آخرين، كبنى عبس وذبيان وبعض بنى تميم عن تأدية الزكاة فقط مع بقائهم على الإسلام، وجمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم في ذلك، وكان رأى عمر بن الخطاب وغيره ألا يقاتلوا أقواماً يؤمنون بالله ورسوله، وأن الرسول قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها) وكان رأى البعض الآخر، معارضاً لذلك، وكان من هؤلاء على بن أبى طالب الذى خاف على المسلمين من الشقاق وعلى الإسلام من راجعة، ومحق دين الله، ووقف أبو بكر إلى جانب من يرى وجوب قتال المرتدين المنافقين ومانعى الزكاة، قائلاً: «ألم يقل الرسول: إلا بحقها، فإن من حقها إيتاء الزكاة، والله لو منعونى عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال» واستطاع أبوبكر بعزمه واصراره على رأيه أو اجتهاده من إخماد فتنة الردة بمدة وجيزة، وتوطيد دعائم الإسلام في كل أنحاء الجزيرة العربية من جديد، واندفع المسلمون بعد ذلك في فتوحاتهم التى هددت الدولتين الفارسية والرومية بالسقوط.

. ومن الأحداث الهامة التى شهدها المسلمون في عهد أبى بكر، اختلاف الخليفة أبى بكر مع وزيره ومستشاره عمر بن الخطاب وغيره من كبار الصحابة حول توزيع العطاء من بيت المال وقسمة الغنائم من الفتوحات، فقد ساوى أبوبكر فى العطاء بين المهاجرين والأنصار وقرابة الرسول، وعارضه فى ذلك عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة، بحجة أن من ترك من المسلمين وطنه وعشيرته وأهله وأمواله، وهاجر إلى الرسول فى المدينة، لا يمكن أن يسوى بمن دخل فى الإسلام كرهاً، وأصر أبو بكر على رأيه لاقضاء الإسلام المساواة بين المؤمنين، ولأن الأنصار آووا الرسول ونصروه وقال فيهم: (لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً، لسلكت وادى الأنصار) ومن اجتهادات أبى بكر أيضاً، اختلافه مع عمر بن الخطاب وأبى قتادة

الأنصارى على إقامة الحدّ على خالد بن الوليد، فقد كان خالد بن الوليد يحارب بعض المرتدين عن أداء الزكاة للخليفة أبي بكر، ومنهم مالك بن نويرة التميمي الذي وقع في الأسر، وقتله خالد أو أمر بقتله، وبني بامرأته أم تميم ابنة المنهال مباشرة» وفي يوم مقتله «قبل انقضاء عدتها، وقد ألح أبو قتادة الأنصاري على أبي بكر لإقامة الحدّ على خالد؛ كما أشار عمر بن الخطاب عليه بوجوب عزل خالد فوراً من قيادة جيش المسلمين في اليرموك، وإقامة الحدّ عليه، قائلًا: «عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته، إن خالدًا قتل مسلماً فاقتله، إن في سيف خالد رهقاً فإن لم يكن هذا حقاً، حق عليه أن تقيده» ولم يستجب أبو بكر لإلحاح أبي قتادة الأنصاري ولا لمشورة عمر بن الخطاب، وذلك لأنه كان يرى مصلحة وفائدة للمسلمين في بقاء خالد على رأس الجيش في بلاد الشام، ولأن عزله في أثناء الحرب فيه ضرر أكيد على معنويات الجند، وأنه قد تأول في تصرفه وأخطأ، قائلًا لعمر: «إليك عنى ياعمر ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد».

ولعل أهم عمل قام به أبو بكر قبيل وفاته وعن إيمان منه وقناعة، هو عهده لعمر بن الخطاب بالخلافة من بعده، بعد استشارة بعض كبار الصحابة والناس على حدّ ما جاء في تاريخ الطبري<sup>(١)</sup> «... إني قد استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل، فذك علمي به، ورأيت فيه، وإن جار وبدل، فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وهو عمل اجتهادي برأينا، مبني على المصلحة، مصلحة المسلمين، حتى لا يختلفوا فيما بينهم ونقسموا، ويكون انقسامهم مؤذياً جداً لهم بعد اتساع أرجاء الدولة الإسلامية، وقد أجاب طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام، اللذان جاءاه معترضين ومذكرين له بالآخرة: «أبري تخوفونني! إذا لقيت الله ربي فسألتني، قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك».

ويمكن القول: إن عهد أبي بكر شهد وقائع مستجدة واجهت المسلمين لا حكم

(١) تاريخ الطبري (٣/٤٢٨)

مباشراً فيها لا فى كتاب الله ولا فى السنة النبوية، وكان لأبى بكر، وهو الخليفة، اجتهاده الخاص فيها، والذي قد يتفق أو لا يتفق مع رأى بعض الصحابة، وكان يأخذ برأى الصحابة الذى يراه مناسباً .

### دولة الخليفة عمر بن الخطاب والتجديد (١٣-٥٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)

تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعهد من الخليفة أبى بكر ومبايعة الناس له. وعرف الإسلام أسلوباً جديداً من أساليب الحكم والشورى وتابع عمر بن الخطاب ما كان بدأه أبوبكر من فتوحات، فاحتلت جيوش المسلمين بلاد الشام كلها، وانتصرت على الجيش البيزنطى فى جنوب شرقى اليرموك، كما احتلت جيوش المسلمين فى الوقت نفسه بلاد العراق كلها التى كانت بأيدي الفرس، ودخلت بلاد فارس كلها واحتلتها، كما احتلت جيوش المسلمين مصر كلها بما فيها الإسكندرية التى كانت تحت سلطة البيزنطيين الروم، وأصبحت بلاد الشام والعراق وفلسطين ومصر وفارس تحت سيطرة الدولة الإسلامية التى عظمت مواردها وتنوع سكانها، ولم ير عمر بن الخطاب فى الإسلام ما يمنع من تبني النظم الفارسية فى توسيع وتنظيم الدواوين التى كانت على عهد الرسول ﷺ والخليفة أبى بكر، فجعل ديوانا لبيت المال لإحصاء أموال الفئى والجزية والخراج والزكاة والخمس والصدقات، وجعل ديواناً للجند لإحصاء عددهم ومعرفة أسمائهم، وديواناً للمحاسبة لتنظيم الجداول بالتفقات الشهرية لأصحاب الحق، والأموال اللازمة لتزويد الجند بالسلاح والخيول، وديواناً للبريد للإتصال بالعمال على البلاد المفتوحة ومعرفة أحوالهم وأخبار الجند، وديواناً للقضاء لمعرفة مظالم الناس وشكاواهم، كما جعل فى كل من البلاد المفتوحة دواوين للإحصاء والمحاسبة والبريد والقضاء ... الخ. وأقام القلاع العسكرية والمعسكرات الدائمة التى تضم الجنود وما يحتاجونه من عتاد ومؤونة، واستحدث السجون.

أما فى حقل الاجتهاد الدينى أو التجديد فى فهم الإسلام، فقد نسج عمر بن الخطاب على منوال أبى بكر الصديق فى مواجهة الوقائع التى كانت تعرض

للمسلمين أو تعرض عليه، فقد كان ينظر إلى كتاب الله في كل أمر يعرض عليه، فإن وجد فيه الحل أخذ به من دون تردد، وإن لم يجد ذلك، نظر إلى سنة الرسول ﷺ عليه السلام، فإن لم يجد فيها حلاً، فإن لم يجد اجتهد رأيه إذا لم يعوزه الاجتهاد إلى غيره، وكثيراً ما كان يلجأ إلى استشارة الصحابة يطلب رأيهم وحكمهم، ثم يحكم بما اتفقوا عليه.

وكان اجتهاده يقوم على أساس المصلحة العامة، مصلحة المسلمين، وهو أقرب شئ إلى ما يعبر عنه اليوم بالاسترشاد بروح القانون، كما كان يقوم على القياس الذي يحمل واقعة لاحكم فيها، على واقعة أخرى منوص عليها، سواء في القرآن أو السنة، لعله المشابهة بينهما، وكان يوصى كل من يوليه القضاء بالنظر إلى كتاب الله في كل ما يعرض له، فإن وجد ضالته في كتاب الله اكتفى به، وإن لم يجد، نظر في السنة، فإن لم يجد في السنة ضالته، اجتهد رأيه، ولعله كان أول من عمل على سد باب الذرائع المفضية إلى مفسدة، بتحريمه المتعة أثناء الحج، عندما رأى التمتع أثناء الحج، ومخافة أن يؤدي ذلك إلى انتهاك حرمت الإحرام: وفي ذلك يقول الشيخ محمد أبوزهرة في موسوعة الفقه الإسلامي: «المتعة وهي مشروعة منعها عمر لما رآها ذريعة إلى فساد، وانتهاك حرمت الإحرام.. وقال: والله لأوشكنم لو خليت بينكم وبين المتعة أن تضاجعوهن تحت أراك عرفة ثم تروحون حجاجاً» (١)

ومن اجتهاداته، إسقاطه حد السرقة في عام الرمادة للضرورة (قاعدة: الضرورات تبيح المحظورات)، وذلك بناء على أن السرقة كانت بغاية حفظ الحياة، وحفظ الحياة مقدم على حفظ المال، وإحالة حد السرقة من قبل الموالي الجياع على سادتهم الذين يضطرونهم إلى السرقة لإشباع بطونهم، فقد جئ له بفيتان من مزينة، سرقوا ناقة وذبحوها وأكلوا لحمها، واعترفوا بذلك، فنظر في وجوههم، فرأى هزالاً بادياً، فسأل عند سيدهم، فعرف أنه عبدالرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة، فأرسل يستدعيه، وعندما حضر، أنه تائباً شديداً، قائلاً له «هممت أن أقطع أيدي هؤلاء لولا ما أعلمه من أنكم تدبونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه

(١) موسوعة الفقه الإسلامي (ص ٢٤٦ - ٢٤٧)

حل له ثم حكم عليه بأن يؤدي إلى صاحب الناقة وثمنها أربعمئة درهم، ضعفي ثمنها، وذلك جزاء له على الذنب الذي ألبأ عبده إلى ارتكابه، ومنعه إقامة الحد على السارق من بيت المال، وإبدال عقوبته إلى التعزير، وذلك لأن للسارق من بيت المال نصيب في المال المسروق. (١)

وعدم تمييزه في الصدقات للفقراء والمساكين بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب؛ فقد رأى يوماً شيخاً ضريراً يطلب صدقة، فسأل عنه؛ فعلم أنه يهودي، فقال له: (ماذا دفعك إلى الاستجداء أيها الشيخ؟ فأجابه: الجزية والسن والحاجة، فأخذ عمر بيده إلى منزله، وأعطاه كفايته من الطعام، وأرسل من توه إلى خازن بيت المال، قائلاً له: انظر هذا وضرباه، فوالله ما أنصفناه إن نحن أكلنا شبييته ثم خذ لنا في شيخوخته، إنما الصدقات للفقراء والمساكين. وهذا من مساكين أهل الكتاب، فاعطه ما يكفيه مؤونة الاستجداء، وإيقاعه الطلاق الثلاث، أو البائن، بلفظ واحد: أنت طالق بالثلاث، أو إذا ما ردّ ثلاث مرات، لأنه رأى خفة من الناس في إيقاع الطلاق ثم الرجوع عنه ثم الإيقاع ثم الرجوع، فأراد أن يخيفهم بذلك، مراعيًا مصلحة الأسرة وكرامة المرأة، ولأن أبغض الحلال إلى الله الطلاق. ومنعه إباحة تزوج المسلمين من الكتابيات في ظل الحرب، دفعاً لكل شبهة، ولما قد يترتب على ذلك من ضرر عام للمسلمين. ومنعه الصدقات عن «المؤلفة قلوبهم»، الذين شرع الله لهمن سهماً فيها، والذين ذكرتهم الآية «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (٢)، وذلك لأن وصف التأليف لا يكون معتبراً إلا عند حاجة الإسلام إلى المؤلفة قلوبهم، انقضاء لشهرهم، وبغاية تأليف قلوبهم: فإذا لم يكن الإسلام بحاجة إليهم، ارتفع الحكم بارتفاع الوصف أي التأليف، لأن الله تعالى لم يذكر أشخاصاً بأعيانهم وإنما ذكر وصفاً وهو التأليف. وبذلك فإن الخليفة عمراً لم يعطل النص، وإنما أوقف العمل به، بعدما فسره بربطه بالعلة أو السبب أو الحكمة

(١) معجم فقه ابن حزم الأندلسي، ص ٣

(٢) سورة التوبة آية ٦٠

التي اقتضته وهي المصلحة: فلما ارتفعت هذه المصلحة بعزة الإسلام وانتشاره، انعدمت الحاجة أو الضرورة إلى التأليف، وبالتالي الاستمرار في إجراء الحكم. ويمكن القول: إن هذا الإجهاد البالغ الأهمية الذي ذهب إليه عمر بن الخطاب إنما هو اجتهاد مبني على الفهم الاجتماعي للنص ومقاصده، الذي يمكن أن يتبدل بتبدل الظروف والأحوال لمسايرة الأوضاع والمصلحة العامة؛ ومن هنا القاعدة الأصولية الشرعية: «لاتنكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والأحوال» وقد رأى الإمام مالك فيما بعد في عهد أنه لا مؤلفة؛ لأن الإسلام منبع وقوى. وتمييزه في قسمة الغنائم من الفتوحات بين المنقول وغير المنقول، وذلك اثر الاختلاف الشديد الذي دب بين الصحابة حول قسمة «أرض السواد» بالعراق أو عدم قسمتها. فقد قال جمهور الصحابة، ومنهم: عبدالرحمن بن عوف والزيبر بن العوام وبلال بن أبي رباح الحبشي، بتقسيمها بين الجاهلدين الذين فتحوها بعد رفع الخُمس منها لبيت المال، استناداً إلى الآية «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>(١)</sup>، ورأى الآخرون ومنهم على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ومعاذ بن جبل. بتركها لأهلها على أن يدفعوا الخراج عنها، وبذلك يستفيد منها جميع المسلمين كافة على مر الزمن.

وكان رأى عمر من هذا الرأي، أى أن تترك أرض السواد التي تعد بملايين الأفدنة بيد أهلها، ويفرض الخراج عليها، للإتفاق منه على مصالح المسلمين ولاسيما على الذين يرابطون فيها لحمايتها، ولأن قسمتها على قلة من المسلمين تورث ملكية كبيرة لهم، واحتكاراً للأرض الزراعية، وهو ما لا يرضاه الله بقوله تعالى «مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...»<sup>(٢)</sup> ولأن الرسول نفسه بعد فتح خيبر. صالح أهلها اليهود على أن تبقى أرضهم ونخيلهم بأيديهم مزاعة بالنصف

(١) سورة الأنفال آية ٤١

(٢) سورة الحشر آية ٧

يؤدونه من الزرع والشمر والحاصل كل عام؛ وكذلك لأن الأرض لاتغنم ولكن يستولى عليها. وإلا فإن العمال الذين يعملون فيها يكونون أرقاء، وهم لم يقاتلوا ولم يؤسروا. ومقاسمته ولاته كل زيادة كانت تطراً على ثرواتهم بعد انتهاء ولايتهم. فقد كان «إذا بعث عاملاً كتب ماله» فإذا عاد، قارن بين ماله المقيد في السجل المحفوظ لديه وبين أمواله التي يحملها معه، فإذا وجد زيادة قاسمه إياها، ورد النصف من المقاسمة إلى بيت المال، وذلك لأن الزيادة في مال العامل أو الوالي لاتعنى إلا إساءة استعمال السلطة، وقد فعل ذلك مع سعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة، وعمرو بن العاص عامله على مصر، وأبي هريرة عامله على البحرين، ويعلى بن مينة عامله على اليمن، ونافع بن عمرو الخزاعي عامله على مكة<sup>(١)</sup> ومصادرته جميع المال الذي يجنيه العامل من وراء تجارة قام بها، وجعله كله في بيت المال، لأن مهمة العامل رعاية مصالح الناس والانصراف كلياً إلى ذلك، والاتجار من قبله، إهمال لمصالح الناس وإساءة استخدام لمنصبه، وقد فعل ذلك مع عتبة بن أبي سفيان.

ومن اجتهادات عمر أيضاً، اجتهاد راعى فيه مصلحة الناس وتراجع عنه فوراً عندما قام الدليل الشرعي عنده على عدم صحة اجتهاده. فقد اشتكى إليه الناس المغالاة في المهور، فنهى وهو يخطب على المنبر عن المغالاة في المهور، وقضى بأن يكون مهر فاطمة بنت الرسول ﷺ وهو خمسمائة درهم، مثلاً يحتذى، فمن زاد على ذلك، ألقيت الزيادة في بيت المال، «فقال له امرأة من صف النساء : ما ذاك لك، قال : لم؟ قالت : لأن الله تعالى يقول: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾<sup>(٢)</sup> فقال: «امرأة أصابت وأخطأ عمر»<sup>(٣)</sup>

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر، ص ٨٩

(٢) سورة النساء آية ٢٠

(٣) ابن الجوزي، سيرة عمر ص ١٠٩

ولعل أهم عمل سياسي قام به عمر وقصد من ورائه مصلحة الأمة والإسلام، والذي يمكن اعتباره عملاً اجتهادياً سياسياً بامتياز، أنه تناول صورة اختيار رئيس الدولة المسلمة، وقيام شكل جديد من أشكال الحكم في الإسلام، يختلف عن شكله أيام النبي ﷺ وأبو بكر، هو تعيينه - لما طُعن وأُحسُ بدنو أجله، وأشار عليه بعض الناس باستخلاف ابنه عبد الله - ما يمكن تسميته بالهيئة الانتخابية لكي تختار من بين أعضائها الخليفة من بعده. وتقدمه للأمة لمبايعته، فقد دعا عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف والزيبر بن العوام وسعد بن أبي وقاص، فقال: «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض. إنني لا أخاف الناس عليكم إذا استقمتم، ولكنني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويجزُر عبد الله بن عمر مشيراً ولاشيء له من الأمر، وطلحة بن عبيد الله شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة، فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، فإن رضي ثلاثة منكم رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكموا عبدالله بن عمر، فأبي الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف»<sup>(١)</sup> ولم يعترض أحد من الصحابة على قرار عمر هذا بتعيين هؤلاء الستة وجعلهم هيئة انتخابية تختار أو ترشح خليفة للمسلمين، لأن هؤلاء الستة، المبشرين بالجنة من قبل الرسول ﷺ، كانوا فعلاً يمثلون أهل الحل والعقد من المسلمين، وآلت نتيجة المشاورة بين هؤلاء، إلى اختيار عثمان بن عفان، فتمت له البيعة من قبل المسلمين في المسجد عام ٢٣ هجرية.

### دولة الخليفة عثمان بن عفان والتجديد: (٢٣ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦)

كان أول عمل إداري قام به عثمان هو أنه أقر الولاة الذين كانوا على عهد عمر

(١) تاريخ الطبري، ٤/ ٢٢٧

بن الخطاب على ولاياتهم، ماعدا المغيرة بن شعبه والي الكوفة، الذي تقاذفته السن أهل الكوفة بارتكاب المحرم. وقد تابع تدعيم أوامر الدولة الإسلامية بفارس من جديد بعد انتفاض خراسان وطبرستان ونيسابور .. الخ. وعزا الروم في عقر دارهم، فوصلت جيوش المسلمين إلى عمورية وقبرص ورودى وأرمينيا، واحتلت جميع بلاد أفريقيا الشمالية، وقد امتلأ بيت المال في عهده بالأموال. فزاد في عطاء كل واحد من الجنود مائة درهم، كما زاد في عطاء أصحاب الحق من بيت المال، وازدهرت التجارة في عاصمة الدولة الإسلامية حتى أصبحت العاصمة السياسية والتجارية معاً للدولة، عم الغنى كثير من الناس.

ومن أعمال عثمان الجليلة والهامة : أنه جمع المسلمين كلهم على مصحف واحد وقراءة واحدة بخط زيد بن ثابت، وأرسل نسخاً منه إلى جميع ولاء الدولة الإسلامية في الكوفة والبصرة والشام واليمن ومصر .. لاعتماده والعمل به، وقام بإحراق كل المصاحف الأخرى التي كانت بحوزة بعض المسلمين، برضى كبار الصحابة .

وكان أول اجتهاد له في دين الله بعد توليه الخلافة، هو عفوه عن عبيد الله بن الخطاب الذي قتل جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة ثاراً لأبيه، دون التثبت من أمر مشاركتهم في قتله، وإطلاق سراحه بدل أن يطبق في حقه حد الله، وهو ما أشار به كبار الصحابة، معللاً ما ذهب إليه، بأن القتل لا ولي لهم، وبالتالي، فهو وليهم بحكم كونه خليفة المسلمين، وقد جعل قتلهم دية واحتملها في ماله.

ومن اجتهاداته التي ذهب فيها مذهباً مغايراً لما كان سائداً في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر، أنه سمح بالتقاط ضوال الإبل - أى صغار الإبل التائهة - وبيعها، فإن طالب صاحبها بها أعطى ثمنها، وذلك عندما رأى أن فساد الأخلاق قد بدأ يدب بين الناس وامتدت أيديهم إلى الحرام، واجتهاده بتفويض الناس حرية التصرف بإنفاق زكاة أموالهم بالطرق التي يرونها مناسبة، واجتهاده بالتوسعة على ذوى قرابته وأرحامه وإعطائهم الأموال وإقطاعهم الأرضين مستند إلى الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ

وَمَا جَرُّوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾، وذلك خلافاً لسيرة أبي بكر وعمر في ذوى القرابة والأرحام (٢).

ولم تعجب أعمال عثمان ولا سيما محاباته لأقاربه في العطاء، وتعيين كثير من العمال من بينهم، بعض كبار الصحابة وعلى رأسهم : عبدالله بن مسعود الهذلي، وأبى ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، وكثير من الناس وبخاصة فى الكوفة والبصرة واليمن ومصر ... الخ ، فقامت ثورتهم على عثمان، وجاؤوا بالآلاف إلى المدينة يطالبونه بعزل جميع عماله، أو الاستقالة، فإن لم يفعل، فليس له عندهم إلا القتل، فأبى عليهم ما طلبوه منه، فأحكموا الحصار عليه في داره، ونفذوا تهديدهم بقتله.

ويروى الطبري فى تاريخه (٤/٤٢٧) أن أصحاب رسول الله، لما رأوا انتشار الفوضى فى المدينة واضطراب حال الأمة، جاؤوا علياً فى بيته يطلبون منه القبول بالخلافة، وأصروا عليه قائلين: «والله مانحن بتاركيك حتى تقبل، فاشترط أن تكون مبايعته فى المسجد وبرضى المسلمين، فكان له ذلك ، وبايعه المهاجرون والأنصار ثم سائر الناس» ولاسيما الذين كانوا يحتلون المدينة.

### دولة الخليفة على بن أبى طالب والتجديد (٣٥ - ٤٠هـ / ٦٥٦ - ٦٦١م)

كان أول عمل قام به على هو عزله عمال عثمان المشكو منهم، وعدم قبول نصيحة المغيرة بن شعبة بالإبقاء عليهم، ولاسيما معاوية بن أبى سفيان والى الشام، حتى يبايعونه ويستتب له الأمر ، قائلاً «والله لا أداهن فى دينى أبداً، ولا أبقينهم ولو ساعة واحدة من نهار» ولم يقبل معاوية بعزله عن الشام، وبدأت الحروب بينه وبين على، ولم تنته إلا باغتيال على يد عبدالرحمن بن ملجم الخارجي عام ٤٠ هجرية، فكان اغتياله أكبر فاجعة حلت بالإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، لأنها أنهت الخلافة الراشدة، ونقلت المسلمين من حال إلى حال. وقبيل وفاته، ترك الإمام

(١) سورة الأنفال آية ٧٥

(٢) حسن إبراهيم حسن، زعماء الإسلام، ص ٤٧-٤٩

على وصية لولديه الحسن والحسين جاء فيها: «أوصيكما بتقوى الله .. وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، الله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم .. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألستكم في سبيل الله .. لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم ... انظروا إذا أنامت من ضربته هذه (ضربة ابن ملجم) فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل ..»

ومن اجتهاداته، حكمه بوجوب ضمان الصناع ما في أيديهم من أمانات، إلا إذا أقاموا البيعة على أنهم لم يتعدوا عليها، خلافاً لما كان عليه الحكم حتى عهده. وذلك لما رأى أن الناس لا يحتاطون في حفظ الأمانات، وربما أدى ذلك إلى ضياع الأمانات وقيام المنازعات بين الناس. وحكمه بالأخذ أصحاب البيوت في مكة أجراً من ساكنيها المعوزين. فقد بعث إلى عامله على مكة، قثم بن العباس، كتاباً جاء فيه: «ومر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً» وحكمه بعدم إقامة الحد على المرأة الزانية التي يشك في عقلها، استناداً إلى قول الرسول ﷺ (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المبتلى حتى يعقل) وحكمه بعدم إقامة الحد على المرأة المضطرة التي أجهدها العطش الشديد، فمرت على راع فاستسقته، فأبى ذلك إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت، لأن الضرورات تبيح المحظورات. وحكمه بعدم إقامة الحد على المرأة الزانية التي يُظن حملها حتى تضع حملها، لأن إقامة الحد عليها سيؤدي إلى قتل نفس بريئة في بطنها من غير ذنب. وحكمه بأن المرأة الحامل يمكن أن تضع لسته أشهر من حملها، وفقاً للآية ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾<sup>(١)</sup> ووفقاً للآية ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ﴾<sup>(٢)</sup> وحكمه بقتل الجميع بالواحد إذا كانوا مشاركين في قتله. وحكمه على شارب الخمر بعقوبه القاذف، وضربه ثمانين جلدة، لأن شارب الخمر إذا شرب سكر، وإذا سكر افتري، وعقوبة الافتراء ثمانون جلدة، وقد جاء في

(١) سورة الأحقاف آية ١٥

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٣

موسوعة الفقه الإسلامى للشيخ محمد أبو زهرة، أن علياً أقام اجتهاده على القياس من جهة والمصلحة من جهة ثانية: « فقد أخذ بالقياس فى حد الشرب وقاسه على حدّ القذف. وقال: من شرب هذى، ومن هذى افترى، وحدّ الافتراء ثمانون. أخذ بالمصلحة فى تضمين الصناعات وقال: لا يصلح الناس إلا ذلك»<sup>(١)</sup>

والذى لاشك فيه، أن كتابه إلى واليه على مصر. مالك بن الأشتر النخعى (١٩ صفحة) الذى يرسم فيه صورة الحاكم العادل وصفاته ومهامه والعلاقة التى يجب أن تقوم بين الحاكم والناس على اختلاف فئاتهم وأجناسهم وديانتهم. وهو من أجل ما كتب فى الفقه السياسى الإسلامى بصورة عامة، حتى اليوم<sup>(٢)</sup>

وأخيراً، يمكن القول، إن الخلفاء الراشدين كانوا يعملون عقولهم فى الأمور التى يواجهونها عند عدم وجود النص ويصدرون أحكامهم فيها وإذا كنا لانعرف الأدلة الشرعية التى استندوا إليها فى اجتهادهم ولا سيما فى اجتهادهم المتعلق أحياناً بتأويل النص وعدم الأخذ بظاهره، فإننا فى المقابل يمكن أن نجد فى اجتهادهم ما يوحى بأنهم اعتمدوا القياس الذى يلحق ما لا نص فيه على ما فيه نص؛ والمصلحة التى تعنى أن أحكام الشريعة قائمة على تحقيق الخير للناس ودفع البلاء أو الأذى عنهم؛ ومقاصد الشريعة التى تعنى الحكمة أو الغاية المقصودة من أحكام الشارع المقدس: وسدّ الذرائع المفضية إلى مفسدة التى تعنى الملازمة المنطقية بين المفسدة ومقدمتها أو نسبتها أو سببها وتحريم المقدمة المؤدية إليها. مع الإشارة إلى أن قواعد الاجتهاد وأصوله لم تقنن بصورة علمية وتأخذ اسم: علم أصول الفقه، إلا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة على يد أصحاب المذاهب الإسلامية المعروفة: المذهب الحنفى نسبة إلى أبى حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠ - ١٥٠هـ)، والمذهب المالكى نسبة إلى مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ)، والمذهب الشافعى نسبة إلى محمد بن إدريس الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤هـ)، والمذهب الحنبلى نسبة إلى أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ) والمذهب الجعفرى نسبة إلى جعفر بن محمد الصادق (٨٠ - ١٤٨هـ)

(١) موسوعة الفقه الإسلامى (١٠/١)

(٢) نهج البلاغة، دار الكتاب اللبنانى ص ٤٢٦ - ٤٤٥

وقد ترك أصحاب هذه المذاهب وتلاميذهم الفقهاء من بعدهم، تلاميذ هؤلاء الفقهاء، ثروة علمية أصولية وفقهية هائلة على شكل موسوعات لاتزال تـزخر بها المكتبة العربية والإسلامية ويفخر بها الإسلام حتى اليوم، لأنها لم تترك جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا وتناولته بالدرس العميق والاجتهاد المناسب، مما يفسر مرونة الشريعة الإسلامية وقابليتها للاجتهاد الذي يحقق مصالح الناس: وهذا ما جعلها تبقى حية في حياة المسلمين وحاكمة لهم، وإن بصور متفاوتة، على مدى أربعة عشر قرناً من الزمن، ولعل بعض النظريات الفقهية الإسلامية، كنظرية التعسف في استعمال الحق، وغيرها، التي لم تعرفها القوانين الوضعيه إلا حديثاً، ما يدل على غنى الشريعة الإسلامية بفقهاها المتنوع والتميز، وقد يكون هذا مادفع المؤتمر الدولي للقانون المقارن الذي عقد سنة ١٩٣٧م بلاهاي في هولندا، إلى اعتبار « الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام » كما دفع بالعلامة الفرنسي في الفقه المقارن، إدوار لامبير، إلى القول: « إن في الفقه الإسلامي كنزاً مخبوءاً ينتظر من يجلوه لعالمنا المعاصر، ليهتدي بهديه، ويسترشد بمنطقه في الخيرة المدلهمة التي أعجزت عالماً الآن عن التمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وصرفه عن التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع »<sup>(١)</sup>

والجدير بالذكر، أنه إذا سلمنا بأن الإسلام الديني مازال ماثلاً اليوم في حياة الأمة العربية والإسلامية من خلال الإيمان بالعقيدة، والعمل بالعبادات وفق مقتضى الشريعة، وإن بدرجات متفاوتة، فإننا لا يمكننا أن نسلم بأن الإسلام كنظام عام. حاكم للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية، موجود اليوم في حياة الأمة العربية والإسلامية - ماعدا المملكة العربية السعودية والجمهورية الإسلامية الإيرانية - ولعل هذا مايفسر أدواء العالم العربي والإسلامي في التخلف والضعف والانقسام والظلم والاستبداد والفقر، وإلى أن يأخذ العرب والمسلمون، وبخاصة العرب، بشرعة الإسلام كاملة في الحرية والعدالة والمساواة والشورى والجهاد والعلم

(١) محمد العربي، موسوعة الفقه الإسلامي، ج١، المقدمة

والوحدة ... إلخ، التي تتجاوز ماقرره العالم الغربي المتقدم في هذه الأمور، سيقون بمنأى عن التقدم الحقيقي والتحضر الصحيح والقوة الحقيقية والوحدة. وإذا كان الإسلام في العصر الحديث شهد فقهاء عديدين، « كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمود شلتوت والشيخ عبداللّٰه العلايلي والسيد محمد باقر الصدر والشيخ محمد مهدي شمس الدين .. إلخ، حاولوا التجديد في فقه الإسلام من خلال النظر في بعض مواضيع الشريعة التي تهتم حياة الناس، ولم يقصروا في ذلك أبداً، فإننا نأمل ويقوة من فقهاء اليوم في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي بإبداء النظر في المواضيع الآتية المتعلقة بالتعصب الديني المذهبي والمغالاة في المذهب، والإرهاب باسم الدين عن قناعة، وتكفير بعض المسلمين لكل مسلم لا يدين بفقهم الديني والسياسي، وتحليل دمه، ووحدة الأمة والتكفير، وحقوق الإنسان الأساسية، وبخاصة الحرية الشخصية والسياسية للمرأة، والانتخاب المباشر من قبل جميع الناس للحاكم لمدة محدودة فقط، وتداول السلطة، والفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، والأمية والعلم، والعدالة والبيئية، وإنجازات الطب المعاصر، وعلاقة المرأة المسلمة بالدولة العلمانية غير المسلمة التي تعيش فيها وتمنعها من ارتداء الحجاب في مدارسها ومؤسساتها العامة ... إلخ.